البناء

السنة السادسة / الجمعة / 6 حزيران 2014 / العدد 1502
Sixth year / Friday / 6 June 2014 / Issue No. 1502

ما بعد الانتخابات المصرية

■ حميدي العبدالله

فاز المشير عبد الفتاح السيسي بأغلبية ساحقة، بلغت حوالي 23 مليون صوت من أصل نحو 25 مليون صوت شاركوا في الانتخابات الرئاسية.

وفوز المشير السيسي في الانتخابات كان متوقعاً، بل محسوماً بقوة، ولكن ما كشفت عنه النتائج هو الفارق الكبير بين ما حصل عليه، وما حصل عليه منافسه حمدين صباحي الذي يعرف بأنه أبرز قيادات ثورتي 25 كانون الثاني 2011 و30 حزيران 2013.

الهام في الانتخابات المصرية التي جرت الأسبوع الماضي ليس فوز السيسي، بل نسبة المشاركة في الانتخابات، بل إن السيسي نفسه هو الذي وضع هذا المعيار عندما طالب وتوقع، أن تصل المشاركة إلى حدود 40 مليون مقترع.

لكن هذا الطموح لم يتحقق وإن كانت هناك في بعض دول العالم نسبة المشاركة بالاقتراع اقتربت أحياناً من حدود 80 % وهي النسبة التي كان يتطلع إليها المشير السيسي.

بلغت نسبة المشاركين في الانتخابات حوالي 47 % أي ما يزيد عن 25 مليون مشارك وهي اقل بمليون واحد من المشاركين في انتخابات عام 2012 التي فاز فيها مرشح الإخوان المسلمين محمد مرسي التي زادت عن 26 مليون نسمة بنسبة تجاوزت الـ 50 % بقليل من أصل الذين يحق لهم المشاركة في الانتخابات.

لكن المشير السيسي حاز على ضعفي الأصوات الذي فاز بها مرشح الإخوان محمد مرسي، إذ حصل مرسي على 13 مليون صوت في انتخابات 2012.

بديهي القول إن الرئيس السيسي يحظى بدعم شعبي أكبر بكثير من الدعم الشعبي الذي حظي به مرسي في فترة رئاسته. وهذه النتيجة سيكون لها تأثير على المعركة الدائرة بين النظام المصري الجديد برئاسة السيسي وبين جماعة الإخوان المسلمين والحركات والقوى الأخرى المؤيدة لها، والتي تعمل تحت مسمى «تحالف دعم الشرعية».

ففي الوقت الذي يحظى فيه الرئيس السيسي بدعم هذه الغالبية التي عبرت عنها الأصوات التي حصل عليها وهي ضعف الأصوات التي حصل عليها محمد مرسي، يمكن القول إن جزءاً كبيراً من الأصوات التي حصل عليها مرسي في انتخابات 2012 لم تأت من الإخوان ومن «تحالف قوى دعم الشرعية» بل جاءت من أصوات الذين وقفوا ضد مرشح نظام مبارك أحمد شفيق، حيث صبت أصوات قوى عديدة، ومنها الأربعة ملايين صوت الذي حصل عليها حمدين صباحي في انتخابات 2012 لمصلحته، في حين أن هؤلاء الذين صوتوا لصالحه في عام 2012 تخلوا عنه وعن جماعة الإخوان و«تحالف دعم الشرعية» وشاركوا في مظاهرات 30 حزيران 2013، وشارك بعضهم في انتخابات عام 2014 وانكفأ بعضهم الآخر، ويمكن الاستنتاج أن مستوى التأييد لجماعة الإخوان المسلمين و«تحالف دعم الشرعية» اقتصر على أقل من خمسة ملايين هو عدد الأصوات التي حصل عليها محمد مرسي في جولة الانتخابات الأولى عام 2012 عندما كان هناك أكثر من مرشحين إثنين.

إذا كانت الاصطفافات الشعبية والسياسية لناشطي مصر تتوزع بين 23 مليون مؤيد للسيسي، وأقل من خمسة ملايين للإخوان المسلمين والتحالف الداعم لهم فإن صورة توازن القوى التي ستحكم على مستقبل المواجهة الدائرة في مصر بين الحكم الجديد وبين جماعة الإخوان المسلمين وحلفائها هي على النحو الآتي:

استقطاب شعبي يقف في طرفه الأول المؤيدون للحكم الجديد وللرئيس السيسي بأغلبية تصل إلى 75 % لمصلحة الحكم الجديد و25 % لمصلحة الإخوان وحلفائهم.

المؤسسة العسكرية والقوى الأمنية الأخرى مثل الشرطة والأمن المركزي تقف بقوة إلى جانب نظام الحكم الجديد.

الموقف الدولي والإقليمي في غالبيته يدعم الحكم الجديد، والدول الغربية تحرص على إرضاء الطرفين، في حين أن دولاً عربية مثل السعودية والإمارات والجزائر، وغالبية الدول العربية تجاهر بدعمها للسيسي ونظام الحكم الذي انبثق عن انتخابات أيار 2014.

في ظل هذا التوازن يصعب توقع ربح الإخوان المعركة أو حتى القدرة على الاستمرار فيها وقتاً طويلاً.

البيئة الحاضنة للنّصر

■ جعفر محمد حسين فضل الله

عندما كان المقاومون يطاردون فلول الاحتلال الصهيوني في الأيّام التي سبقت 25 أيّار (مايو) 2000م، ويفتحونَ الأبواب المغلقة التي كانت تفصلُ بين القرى الجنوبيّة من لبنان، كانوا يعلنون أنّها ليست الأرض فقط هي التي تحرَّرت، وإنّما الذي تحرَّر معها هو ذهنيّة الإنسان الذي رضخ سابقًا لقناعة أنّه لا يملك القدرة على الإنجاز. وعندما يقتنع الإنسان بأنّ قَدَرَه ضعفُه، فإنّ عقله يفقد فعلًا أيّ حافز للتفكير بصناعة القوّة وتحقيق الإنجاز؛ لأنّ طاقته تصبح موجّهة نحو تأكيد تلك القناعة السلبيّة، التي تجتذب إليها الكثير من التبريرات والشواهد على ذلك «القدر المحتوم»، وبذلك يتحوّل الفشلُ إلى ذهنيّة واتّجاه وسلوك عمليّ. ولذلك قيل إنّ أوّل ما يُغلب عليه الإنسان فكرُهُ، ولعلّ قول الله تعالى: (إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بقَوْم حتّى يُغيِّروا ما بأنْفُسهم)[1] يُشير إلى ذلك؛ لَيكونَ الفشلُ وليدَ صورةَ ذهنيّة تكرّسُهُ قدرًا في الإنسان، وليكون النجاح وليد تغيير في تلك الصورة إلى ضدِّها. وهذا كلّه هو ما نلمسُهُ خلفيّة وراء كلّ الحروب الإعلاميّة التي تستهدف ضرب البنية الفكريّة والنفسيّة والروحية للإنسان، إضافةً إلى ضرب بنى التماسك الاجتماعي والاقتصادي والأمني وما إلى ذلك.

ذلك كان التأثير الاستراتيجي الأعمق للانتصار الذي تحقّقَ قبل أربعة عشر عامًا: تغيُّرٌ في بنية العقل، وفي شعلة الروح، وفي حركة الذهنيّة، وفي أفق التطلّعات والطموحات، وهو يمثّل اللبنة الأولى في أيّ عمليّة نهوض للأمّة، والتي يمكن أن تشكّل فعلًا حضاريًا متراكمًا إذا ما تحوّل الإنجاز والإبداع إلى ثقافة تنسحبُ على كلّ ميادين الحركة ومستوياتها، وإلى منهج يطوّر كلّ ميادين الفكر والثقافة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والعلوم وما إلى ذلك.

هذا التأثير الاستراتيجي الكبير، يمثّل حُكمًا نقطة تهديد جوهريّ لبنية الهيمنة والاستعمار والاستكبار العالمي، هذه البنية التي فَرضَت تصنيف العالم إلى عالم أوّل وثانٍ وثالث؛ ليكون وجه ما سمّي بالعالم الثالث – ودولُنا ومجتمعاتنا من ضمنها بحسب التصنيف – هو الوجه الاستهلاكي، الذي يعيش على فتات موائد الآخرين، وعلى هامش اكتشافات العلوم التي لا يصلح لها إلا «العقل الأوّل»! وعلى هامش اقتصاد المجتمعات «المتحضّرة»! هذا العالم «الثالث» الذي ينبغي عليه أن يصرف جهده ليجد له موقعًا في الخطط التنفيذيّة لمراكز دراسات هذا «العالم الأوّل»، لتكون أدوارُنا، لا كأفراد فحسب، وإنّما كدولٍ ومجتمعات بأسرها، عبارة عن تخصّصاتٍ تصبُّ في خدمة ذلك العالم ورفاهيّته!

وإذا كان ذلك النوع من التأثيرات يمارس ذلك النوع من التهديد، فمن السذاجة بمكان أن نتوقّع أنّ ذلك العالم «الأوّل» سيقفُ مكتوف الأيدي وهو يرى بداية نهوض أمّة، وينتظرُ ريثما يتحوّل التهديد إلى طلب الشراكة في قيادة العالم، ومن ثمّ تقديم نموذج بديل قائم على رؤية مغايرة تتّصل فيها الأرض بقيم السماء...

لذلك، من البديهي أن يتوجّه ذلك العالمُ إلى كلّ نقاط الضعف التي سيجدها في مجتمعاتنا، والتي كثيرٌ منها تراكم عبر الزمن، وتضخّم مع الأوهام، وتحجّر مع العصبيّات، وجمد مع الإخلاد إلى الأرض، سواء منها ما يرتبط بحركة الفكر ونوعيّة آليّاته، أو ببنية الاقتصاد ووتيرة ازدهاره، أو بقيم الاجتماع وسطحيّة بناها، أو بأنظمة الحكم وضعف تطوّرها، أو بقواعد السياسة وخواء أخلاقيّاتها، أو بخطوط الأمن وبدائيّة أدواته، وحتّى بطريقة فهمنا لأدياننا ومذاهبنا العقديّة وما إلى ذلك... وسيعملُ على إذكاء نارها، وتسريع حركتها حتّى تصبح عصيّة على الانضباط، لتنطلق على شكلِ تناقضات تستتبعُ أخرى، لتصل بواقعنا إلى التفجير الشامل، «حرب المائة عام» كما بشّر هنري كيسنجر، عقل الشرّ في سياسة الاستكبار العالمي.

كثيرةٌ هي الأحداث التي يُمكن إحصاؤها وإيرادها كشواهد على أنّ السياسة الاستكباريّة بدأت، منذ استشرفت وصول الإسلاميّين إلى هذا النوع الحضاريّ من النصر، بمسح الأرض، وتجميع الأفكار، ورسم الخطط، التي تستهدفُ كلُّها القضاء على هذا الإسلام من داخله، عبر استهدافه من الجذور، في عقيدته وشريعته ومناهجِ حركته وبناه الحضاريّة؛ ليغدو في نظر العالم في صورة وحش مشوّه، يمثّل خطرًا على البشريّة، وبالتالي تُصبح إبادته الجماعيّة، من الداخل والخارج، أمرًا مبرّرًا ضمن المنطق الدولي؛ بل فيه عمق معنى الإنسانيّة والسلوك الحضاريّ، ولو من خلال القنابل الذرّية وغرف الغاز!

مع الأسف، كان الأقلَّ كلفةً على الغرب المستكبر، أن يعمل على التفجير الداخليّ، لكي تُصاب الأمّة باليأس والإحباط، وتستعيد ذهنيّتها السابقة بأنّها أمّة لا تستحقّ الحياة؛ هذا إذا صدّقت أنّها أمّة! لتدخل بعد ذلك في غيبوبة حضاريّة جديدة، هي أقسى من سابقاتها؛ لأنّ الزمن الذي يتحرّك خارجها أصبح أكثر سرعةً وأقوى تأثيرًا.

من هنا، نطرح مفهوم «البيئة الحاضنة للنصر»، لنؤكّد على أنّ تحصين النصر لا يكون إلّا بأن يكون هناك مجتمعٌ، أو أمّة، ترتقي إلى بنيته التي شكّلت قاعدة صنعه، وهذا إنّما يكون – على الأقلّ – بسدّ كلّ الثغرات التي يُمكن أن ينفذ من خلالها الأعداء ليحوّلوا النصر إلى هزيمة، وكما انطلقت المقاومة في خطّ الإعداد العسكريّ والأمنيّ، وارتكزت على بيئة اجتماعيّة حامية لها، فإنّ مرحلة ما بعد النصر لا تقلُّ خطورة عن مرحلة المقاومة في حركتها الميدانيّة الجهاديّة؛ لأنّ التحدّيات التي تواجه المجتمع، الذي تنتمي المقاومة إليه، هي مزيجٌ من تحدّيات الخارج، القائمة بتهديد العدوّ المستمرّ لكلّ عناصر القوّة، ومن تحدّياتٍ تنشأ من طبيعة السلم الذي يهنأ به المجتمع نفسُه؛ وهي طبيعةٌ تفرض خفض نسبة التوتّرات المضادّة لأيّ تهديد، وتسمح بنفوذ كثير من الفيروسات التي تبثُّ عبر الإعلام والتربية والتعليم واحتكاك المجتمع عبر نوازعه الانفعاليّة والعصبيّة وما إلى ذلك..

بعبارة أخرى، تمثّل مرحلة الجهاد العسكري توجيهًا للاهتمام نحو الحدود القصوى للمحافظة على الحياة، كغريزة متأصّلة في البنية البشريّة، وبالتالي تخفُّ قيمة الاهتمامات الأخرى للإنسان؛ بل قد يعتبرها هامشيّة أمام التحدّيات المصيرية التي يواجهها. أمّا عندما تستريح النفس لهدوئها ودعتها وسلام الواقع من حولها، فإنّ كثيرًا من الهامشيّات تصبح في صلب الاهتمام، وكثيرًا من الكماليّات تصبح ضروريّات؛ وهذا ما يتطلّب مضاعفة الجهود لتحصين النفس عبر عمل مستمرّ ودؤوب ومتنوّع الأبعاد. ولعلّنا نفهم ذلك الحجم من التحدّي ممّا رواه عليٌّ (ع) قال: «إنّ رسول الله (ص) بعث سريَّة، فلمّا رجعوا قال: مرحبًا بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، قيل يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس»[2].

ولذلك نقول إنّ البيئة الحاضنة للنصر لا بدّ أن تعمل على تقوية البنية الاقتصاديّة؛ لأنّ جوع الناس يؤدّي قد يكون بيئة خصبة لكثير من الأمراض الأخلاقيّة والجرائم، كما أنّه منفذٌ أساس لشراء الضمائر، ولاجتذاب الجواسيس والعملاء وما إلى ذلك.

ولا بدّ من العمل على تماسك الاجتماع، عبر تمتين معاني التواصل والتباذل والتعاون، والتفكير بذهنيّة توزيع الأدوار، وتقوية مواقع الضعف، وذلك كلّه يرتكز على تنمية حسّ الجماعة التي تحقّق التوازن بين نوازع الفرد وطموحاته، وبين حاجات المجتمع وتحدّياته. وإنّ فقدان هذا النوع من التماسك، يؤسّس لتفكّك الجبهة الداخليّة التي تفتح أكثر من ثغرة ينفذ منها الآخرون، وتشكّل مناخًا ملائمًا للتفلّت القيمي والأخلاقي.

ومن تماسك المجتمع إشاعة روح الوحدة، التي تعني التعاون مع الآخر المختلف على «كلمة سواء»، وأهداف رساليّة مشتركة، وهذا يفترض أن تكون الوحدة الإسلاميّة والوطنيّة من المشاريع الأصيلة في تمتين بيئة النصر وزيادة مناعتها، ولذلك فكلّ ما يضرّ بالوحدة، حتّى على مستوى الذهنيّة، يمثّل خطرًا استراتيجيًّا على مشروع النهوض الذي يتحرّك الجهاد لحماية عوامله وبيئته، ولا يصحّ النظر إلى ذلك على أنّه مسألة هامشيّة، ولا النظر إلى قضيّة الوحدة على أنّها مسألة سطحيّة ظاهريّة مصلحيّة بالمعنى الضيّق للمسألة.

وليس بعيدًا عن تحصين بيئة النصر، التحديث الدائم للنظم السياسيّة؛ لأنّ الفساد السياسي يسمح للفاسدين بأن يتحكّموا بحركة السياسة التي ستتحرّك وفق المصالح والنفوس الفاسدة والضعيفة أمام الإغراءات والترهيب، وبالتالي يكون القائمون على إدارة شؤون البلاد والعباد من الذين يرتهنون لإرادات خارجيّة، تعمل وفق أجندات مصالحها، ليقف هؤلاء حجر عثرة أمام مصالح الناس، وبالتالي يفقد الناس أمنهم الاجتماعي والسياسي، وينخر فيهم القلق على المصير، ويتحوّل الناس إلى وجودات ذات قيم متعدّدة ومتضاربة، ويصبح الاستزلام والتملّق لصاحب السلطة وجهًا من وجوه العمل السياسي، وعندئذ يسهل الضغط على الشعب كلّه عبر الضغط على قياداته «البشريّة». وعلى هذا الأساس، كان الإصلاحُ المستمرّ جزءًا لا يتجزّأ من قواعد المحافظة على الإنجازات والانتصارات.

وليس صحيحًا أنّ بيئة النصر هي البُعد عن أسباب الترفيه، ليعيش الإنسان الإحساس بالموت قبل أن يأتيه، فقد ورد في الحديث «روّحوا القلوب ساعةً بساعة»؛ لأنّ الملل قد يصيب القلوب كما الأبدان، وبالتالي يكون ذلك سببًا في تجدّدها.. وعلى هذا الأساس، فالجهاد لا يتنافى مع السياحة، بل يفرضه ولكن ضمن الهادفيّة والقيم؛ لأنّ المطلوب هو تخفيف حدّة التوتّرات النفسيّة التي تنشأ من عوامل مختلفة؛ لأنّ بيئة تعيش التوتّر والضغط النفسيّين هي بيئة غير صحّية للتفكير السليم والتحكّم بردّات الفعل؛ فإذا عمّت المجتمع، كانت سببًا من أسباب دماره وهلاكه.

حتّى أنّنا نستطيع أن نقول إنّ البيئة الفكريّة لا بدّ أن تكون ذا بنية تطوّريّة، تنتج من موقع الإبداع المستند إلى الأصالة، وتنقد من موقع الإخلاص للحقيقة التي هي الأرض الثابتة للحركة والتقدّم، وليس صحيحًا أنّ مشروع النهوض الذي يولّده النصرُ يتطلّب الجمود عند فكرٍ ما، أو عند طروحات معيّنة؛ لأنّ هذا يعني الجمود على أفكار مرحلةٍ ونتاجها، في حين قد تطرح المراحل القادمة أسئلة كثيرةً تتطلّب فكرًا تدرّب على الإنتاج المبدع، والتفكير الحرّ، أن يجيب عليها، حتّى لا تبقى مساحة قلق في الفكر، يشكّل تراكمها عنصر قلق للذات، قد يدفعها إلى الاستقالة من كلّ مواقع المقاومة والنصر والنهوض الحضاريّ للأمّة.

باختصار: إنّ النصر عندما يتحقّق على أيدي المجاهدين، فإنّ تمتين بيئته الحاضنة تصبح مهمّة الأمّة كلّها؛ لأنّ الانتصارات هي بحجم الأمّة، ولذلك نقول إذا كانت حركة المقاومة تخصُّصيّة، بمعنى أنّ المتصدّي لها فصيلٌ من الأمّة، فإنّ مسؤوليّة المحافظة على النصر عينيّة لكلّ فرد أو جماعة أو فصيل أو مذهب أو طائفة في الأمّة؛ لأنّ المعنى المراد للحفاظ على النصر هو تفعيل عناصر النهوض في حركة المجتمعات على كلّ المستويات وفي جميع المجالات؛ والله من وراء القصد.

هوامش:

1 – سورة الرعد، الآية 11.

2 – ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ج1، ص453.

على ضفّتي الخليج... هل تقدّمت إيران حيث تخلّف العرب أم العكس؟

■ أبو بكر صالح - عدن

لم أكن أدرك أن طرح مثل هذا السؤال قد يدخل في مضمار الخيانة الإلهية!؟ أو خيانة العقيدة! مثلما يراه اللاهوت السلطويّ العربيّ اليوم، خاصة الوهابيّ! خشية لن يكون هو المتسبب في تخلّفنا أمام الآخرين ويريد أن يحمّل الآخر المجهول، عدوّنا، كامل المسؤولية ليظهر بريئاً تسعى نظرية المؤامرة إلى إظهاره المذنب؟

أرى أني لا أملك حق طرح السؤال أساساً، لأنني لست من النخبة المثقفة أو من كبار المحللين أو المنظرين، وكان مفترضاً أن يطرحه أحد أولئك النخبة المثقفة، أما أنا فلا بدّ من أن أخوض في مضمار يتناسب وقدر ثقافتي البسيطة والعفوية في آن واحد! بيد أن ما أثار حفيظتي وحنقي أن مسألة الطرح تعتبر من المنهيّات أو المنكرات، حتى على كبارنا من أهل الثقافة والفكر والسياسة؟

موضوع التخلّف قد ينبري البعض للرد عليه بصورة تكاد تكون هستيرية وبلا وعي ثقافي يرتقي إلى المسؤولية التاريخية! إذ سيرى أن أي حديث عن التخلّف سيكون مرتكزاً بلا ريب على الوازع الديني أو المعتقد دون سواه، في حكم مستعجل لا يستند إلى وعي مسؤول؟ وهذه إحدى العقبات الكأداء التي غالباً ما تعترض أي محاولة تأسيس وعي جديد يجمع الاختلافات ويكون أرضية ثقافية شاملة من شأنها أن تؤسس لوعي ثقافي واجتماعي واقتصادي للأمة مهما اختلفت معتقداتها الدينية أو الاثنية أو الطائفية... إلخ؟ ولا يعني بالضرورة أن اي دعوة إلى تلمس طريق ما إذا كان هناك وعي خلاق قد برز، ولا يمت إلى أي وعي آخر بأي صلة؟

من المبالغات المجحفة في حق بعض التيارات العربية التي ساهمت في ثورات التحرّر العربية أن تتهمنا هي بتخلفنا وتراجعنا أمام التقدم الصناعي والاقتصادي والثقافي وغيره من مناحي النهضة، ففي نظر الذي وجهوا إليه ذلك الاتهام وروّجوا له إعلامياً بصورة ممنهجة عكست صورة سلبية لدى الأمة التي خانها وعيها وصدّقت ما روّج له، إلى حدّ أنها (أي الأمة أظهرت سذاجة وغباء منقطعي النظير تمكن ممن ينتمون الى الإسلام السياسي من تضليلها كل هذه المدة ولم تكشف حقيقتها إلاّ هذه الانتفاضات العربية التي اجتاحت العالم العربي وكان وقودها الخفي والخبيث المال النفطي من أعراب الخليج الذي لم يقودوا أي ثورة بمعناها الحقيقي والواقعي في بلدانهم إنما استبدلهم الاستعمار قبيل خروجه من المنطقة في ستينات القرن المنصرم وسبعيناته.

مما لا شك فيه أن بذرة القومية العربية اشعلت جذوة الثورات العربية التحررية وساهمت بلا ريب في نهضة عربية قومية توجت انتصاراتها الناصرية المصرية التي أضحت قدوة لا تسعى الى عسكرة الأنظمة مثلما صوّرتها الأدوات الاعلامية الدعائية المغرضة وتجذرت في العقليات العربية من دون أن تعي جوهرها وخطورته، وذلك كلّه مضاجع الدول الاستعمارية الإمبريالية وتسبب بدخولها من جديد في حرب باردة تبنّتها تلك الأنظمة التي كرّست لوجود استعماري دائم تحت مسميات عديدة لا تزال الى يومنا تأخذ طابع قواعد حربية واتفاقيات خفية وظاهره تصب كلها في مصلحة الارتهان الخارجي.

على الضفة الأخرى كانت إرهاصات الثورة الإسلامية تختمر لتنفجر بعد استقلال الدول العربية مباشرة، فتندلع لتطيح أكبر الأنظمة العميلة والموالية للغرب وكيان العدو وتلغي حكم أوليغاركي عائلي كان يتبنى ديمقراطية مقننة تخدم أكبر دولة تعبث بالديمقراطية زيفاً وكذباً.

بيد أن ثورة إيران الإسلامية لم تأخذ منحى قومياً علمانياً مثلما حدث في بعض البلدان العربية، إنما أخذت منحى ثيوقراطياً استأثر بسلطة الحكم لاهوتياً غير متطرف مع بقية الأديان أو الإثنية بصورة سافرة، وإنما مد جسور التواصل مع جميع الأطياف وإن يكن بعضها لا يترك تأثيراً ملموساً. لكن ذلك لا يعني أن ما سجلته إيران من نهضة تقنية وعلمية وصناعية ضخمة غير القفزات في بقية الجوانب الأخرى التي لا تقل أهمية عما ذكر يعود إلى صفة الاعتقاد وحده، إنما كان الدين المشروع الكبير الذي شمل تلك القفزات النهضوية ودعم مسيرة البناء والتنمية، بل واجهها وكان السدّ المنيع لردع أي محاولات أو مؤامرات تستهدف ذاك المشروع الطموح، على نقيض رجال اللاهوت العربي، خاصة بنكهة الوهابية و«الإخوانية» وجهي العملة الواحدة (في رأي الكاتب)، فـ«الإخوان» لم تحتضنهم إلا أنظمة وهابية الخليج وأغدقت عليها المال وكانت محاولاتها القضاء على مصر عبدالناصر بالأمس وسورية والعراق وليبيا ومصر اليوم؟

على عكس أغلب الأنظمة العربية، لم تقدم الثورة في إيران على تخريب أو تدمير بنية الدولة التي ورثتها عن المخلوع شاه إيران، ناهيك عن خروجها من حرب ضروس مع جارتها العراق قاربت عقداً من الزمان! إنما رفدتها باهتمامات كبيرة ومؤثرة آتت ثمارها وخير تلك الثمار صمودها الأسطوري أمام الحصار الدولي الذي كاد يحقق ما لم يكن يحلم به الاستعمار، والمتمثل في إسقاط الدولة والثورة الإيرانية برمتها، وقد خرجت إيران بخبرة عظيمة لا شك في ستسجل من خلالها مزيداً من الطموحات التي تداعب قادة ذلك البلد، وستخرج بنتيجة من شأنها تحقق نهضة اقتصادية واجتماعية وثقافية وتنويرية نهضوية منقطعة النظير قد تؤهلها لتأخذ مكانها بين الدول المتقدمة.

لا شك في أن ما حققته ايران في مفاوضاتها مع الغرب وتجلى انتصارها في ذلك النفس الطويل والحكمة والذكاء الذي أجبر الغرب على التنازل عن تلك العجرفة والغطرسة والغرور، إذ استشعر أن أمامه خصم ذكي وعنيد ويقظ وقوي لا يستهان به؟ رغم التهديدات التي طالته وظلت مصلته عليه سنوات. في اعتقاد الكاتب أنها لو كانت موجهة إلى نظام عربي هش لسقط في شهرين، إنما نسجل فخراً واحداً اليوم هو صمود سورية أمام أكبر هجمة همجيّة شرسة وعاتية ووقوفها أمامها وكانت أشد ضراوة من ذاك العدوان الذي طال العراق عام 1991 بعد غزوه للكويت عام 1990، وكذلك عدوان عام 2003؟

أيام من حزيران يوم المفقود العربي

■ معن بشور*

كان يوم الأحد 6 حزيران 1982 اليوم الثالث من الحرب الرابعة بين الأمة والعدو الصهيوني، وبعد يومين من القصف الجوي «الإسرائيلي» على لبنان بدءاً من المدينة الرياضية الملاصقة لمحلة الطريق الجديدة في بيروت، وصولاً الى العديد من القوات الفلسطينية – اللبنانية على امتداد الطريق من العاصمة الى الجنوب والبقاع الغربي، مروراً بالساحل الشوفي من جبل لبنان...

كان مئات الشبّان يحتشدون مساء يومذاك في مقرّ تجمّع اللجان والروابط الشعبية في المصيطبة، ويبدون استعدادهم للتوجه الى الجنوب لمقاومة القوات الصهيونية المتقدمة على أكثر من محور في ساحله وتلاله وهضابه، تحت ذريعة إبعاد صواريخ المقاومة الفلسطينية عن المستعمرات الصهيونية في شمال فلسطين وفي عملية أسمتها «تل أبيب» يومئذ «سلامة الجليل»، وتبيّن أنّ الهدف احتلال أجزاء كبيرة من لبنان بما فيها العاصمة بيروت.

لم يكن سهلاً إقناع الشباب بأنّ الوصول الى مواقع القتال ساعتئذ ليس بالأمر المتيسّر، لا سيما أنّ وسائل النقل العسكرية لم تكن متوافرة لدى تجمّع محدود الموارد والإمكانات، وأنّ الحكمة تقتضي الاستعداد

> المفقودون في حروبنا الداخلية الصهيونية المنشأ والأهداف هم بالألوف حتى تساءل البعض عن أيّ مفقودين تتحدثون؟

للدفاع عن العاصمة التي كان واضحاً أنها الهدف القادم للغزو لتغيير المعادلة السياسية وإخراج قوات المقاومة الفلسطينية ومعها الجيش العربي السوري، من العاصمة أولاً ومن لبنان كلّه ثانياً.

مع ذلك أصرّت مجموعة من الشبّان، وما كان يزيد عددهم على العشرة، على التوجه جنوباً ليكونوا طليعة المقاومين للزحف الصهيوني المدجّج بأحدث أنواع الأسلحة، والمغطى بطيران حربي كثيف، وببوارج تقصف من البحر، وتبرّع أحدهم بسيارته المدنية، فيما وضع الآخر شاحنة بيك آب ينقل فيها الخضار الى العاصمة بتصرّف المقاومين الرواد.

كانت الساعة تشارف العاشرة ليلاً حين توجه الشبّان مصحوبين بحماسة من قرّر المواجهة، فيما كان حكام كثيرون يغطون في سبات عميق أو يتواطأون سرّاً مع عدو قرّر أن يريحهم من عبء المقاومة، بل من أعباء فلسطين كلّها.

بعد ساعتين من المغادرة، وفي منتصف الليل تماماً، وفيما اقتربت السيارة ومعها الشاحنة من مدينة صيدا، فوجئ المقاومون الأوائل بإنزال صهيوني كبير على جسر الأولي، وكانت الخطة «الإسرائيلية» تقوم على جملة عمليات إنزال تفصل المناطق اللبنانية بعضها عن بعضها الآخر.

اشتبك ركاب السيارة المدنية بأسلحتهم الخفيفة مع الحاجز «الإسرائيلي» الحديث، وتدخلت المروحيات، فأصيب أحدهم، محمد المعلم (شقيق منسّق خميس الأسرى الأخ يحيى المعلم) بجروح في يده، وشوهد وهو يُنقل مصاباً إلى مروحية «إسرائيلية»، فيما أسر رفيقاه هاشم ابراهيم وحمزة يزبك وظهرا في ما بعد في معتقل انصار ذائع الصيت، وتمكن قائد المجموعة الملازم آل شوكت سليم من الإفلات من قبضة العدو.

الشاحنة التي كانت تقلّ آخرين هم مالك الشاحنة محمد شهاب والشاب البيروتي بلال الصمدي والجنوبي المقيم في بيروت منذ ولادته ابراهيم نور الدين، والبعلبكي حيدر زغيب قريب الضابط اللبناني الشهيد في معركة المالكية النقيب محمد زغيب، والشاب السوري الذي جاء الى بيروت طلباً للعمل فواز الشاهر، انقطعت أخبارها تماماً، واختفى أثر ركابها المقاومين الأوائل حتى الساعة، رغم جميع المراجعات الممتدّة على مدى 32 عاماً مع الصليب الأحمر والأمم المتحدة والمنظمات الدولية والحكومة اللبنانية.

لم يكن الشبان الستة المفقودين الوحيدين على يد قوات الاحتلال الصهيوني، بل اختفى أيضاً في تلك الأيام مناضلون كثر ينتمي بعضهم الى منظمات وأحزاب، مثل المناضل محي الدين حشيشو أحد قادة الحزب الشيوعي في مدينة صيدا، ومناضلي جبهة التحرير الفلسطينية وفي مقدمهم القائد العسكري عضو المكتب السياسي سعيد اليوسف ورشيد آغا وعماد عبد الله، والقائد حسين دبوق عضو قيادة جبهة التحرير الفلسطينية الذي كان له دور أساسي في جبهة المقاومة الوطنية، وصولاً الى المناضل عدنان حلواني عضو قيادة منظمة العمل الشيوعي الذي اختطف من منزله في رأس النبع بعد دخول قوات الاحتلال الى العاصمة مع العشرات آخرين من أبناء العاصمة الذين تناوب على خطفهم جنود الاحتلال والميليشيات المتعاملة معه.

بقي مصير الشبّان المقاومين الرواد الستة من أعضاء تجمّع اللجان والروابط الشعبية ومصير المناضلين الآخرين مجهولاً حتى الساعة، وبقينا نحيي ذكرى اختفائهم عاماً فآخر، علّ خبراً ما يصلنا عن مصيرهم أو مصير بعضهم على الأقل، وأردنا يومذاك ان نعتبر السادس من حزيران يوماً للمفقود العربي على يد الاحتلال، خاصة أنّ المفقودين في حروبنا الداخلية، الصهيونية المنشأ والأهداف، باتوا بالألوف، حتى تساءل البعض عن أيّ مفقودين تتحدثون، وكان جوابنا دائماً أنّ الدفاع عن أي مفقود هو دفاع عن سائر المفقودين، والدفاع عن المفقودين لدى العدو الصهيوني هو دفاع عن مفقودي الحروب كلّها التي لم ولن تخدم إلاّ المخطط الصهيوني بتمزيق مجتمعاتنا والانتقام من شعوبنا.

لم تكن تلك الليلة الحزيرانية الطويلة مليئة بالألم والحزن على فقدان رفاق أبطال أعزاء جسّدوا باندفاعهم وبسالتهم وحدة الوطن والأمة فحسب، بل كانت أيضاً ليلة تختزن في معانيها مسيرة طويلة للمقاومة انتهت بهزيمة نكراء للعدو، اضطر إلى أن يصرخ جنوده بمكبرات الصوت ذات صباح من أيام أيلول 1982: «يا أهل بيروت، لا تطلقوا النار علينا نحن سنغادر عاصمتكم».

كان صمود بيروت في وجه حصار امتدّ ثمانين يوماً أسطورياً، وبعد معركة مجيدة في خلدة شارك فيها لبنانيون وفلسطينيّون وسوريّون ومتطوّعون عرب وقادها العقيد الفلسطيني البطل الشهيد عبد الله صيام ابن مدرسة عز الدين القسام وعبد القادر الحسيني. وانتقم في تلك المعركة للمفقودين الستة رفاق لهم في تجمّع اللجان والروابط الشعبية في أول عملية تصدّ للقوات الصهيونية المتقدمة لاحتلال العاصمة، وقرب المدينة الرياضية ذاتها التي بدأت الحرب بالقصف عليها، وسقط يومذاك شهيدان من رابطة أبناء الطريق الجديدة (قوات فخر الدين) محمد الصيداني وعصام اليسير، الشهيدين الأوّلين للمقاومة الوطنية لحظة انطلاقها تحت شعار خالد أطلقه تجمع اللجان والروابط الشعبية «ليس من العار أن تدخل مدرّعات العدو عاصمتنا، لكن العار كلّ العار أن لا تجد من يطلق النار عليها». وفعلاً انفتحت نار جهتم على العدو في سائر أحياء بيروت، وعلى يد شبّانها المنتمين الى مختلف التيارات والأحزاب والقوى العروبية والناصرية والبعثية والإسلامية والشيوعية والقومية الاجتماعية.

لم تتوقف المقاومة ضدّ العدو منذ تلك الأيام، ولم تتوقف المؤامرات الهادفة الى إسقاطها وإسقاط سلاحها، وبدا أنّ روح المقاومة التي ألهبت المقاومين الستة المفقودين وغيرهم من المقاومين الأبطال ما زالت مشتعلة مثل راية يحملها جيل إثر جيل...

> أدرك قادة العدو زيف شعار أطلقوه يوماً: «إنّ احتلال لبنان لا يحتاج الى أكثر من نزهة تقوم بها كتيبة من المجندات على دراجات هوائية»

إنه يوم من أيام حزيران الذي أراده العدو شهراً لهزيمة الأمة، فكان شهراً لانتفاضاتها مذ ان خرجت الأمة يومي 9 و 10 حزيران 1967. وبعد أيام على الهزيمة، ترفض تنحي القائد جمال عبد الناصر، وتكافح لتترجم مقولته الخالدة «ما أخذ بالقوة لا يستردّ بغير القوة».

في الحرب «الاسرائيلية» الرابعة (حزيران – أيلول 1982) سقط للعدو ألوف القتلى وعشرات ألوف الجرحى، بينهم بعض أكبر ضباطه، وأدرك قادة هذا العدو زيف شعار أطلقوه يوماً: «إن احتلال لبنان لا يحتاج الى أكثر من نزهة تقوم بها كتيبة من المجندات على دراجات هوائية...».

فهل نستعيد روح تلك الأيام المجيدة... ونتمسك بمقاومتنا نهجاً وخياراً وثقافة وسلاحاً.

* المنسّق العام لتجمّع اللجان والروابط الشعبية